مجلة العلوم والبحوث الإسلامية
SUST Journal of Islamic science and Research
Available at:http://scientific-journal.sustech.edu/

أساليب التفسير عند السلف

فيروز محمد محمد*

المستخلص

هذه الدراسة بعنوان : أساليب التفسير عند السلف، للتعرف على الأساليب التي اتبعها السلف في استنباط القواعد والاصول التي بنوا عليها تفسيرهم. تتمثل مشكلة البحث في تناول الدراسة موضوعاً مهماً وهو أساليب التفسير عند السلف وهو موضوع رئيسي من موضوعات التفسير التي مازالت بحاجة إلى كثير عناية ومزيد اهتمام. وتهدف الدراسة للتعرف على الأساليب التي اتبعتها السلف في استنباط القواعد والأصول التي بنوا عليها تفسيرهم وتستمد الدراسة أهميتها من موضوعها الذي يتناول أصول التفسير ، من الضروري أن يتعرف كل ناظر في تفسير السلف على الأساليب والطرق التي انتهجها سلفنا الصالح في تفسيرهم لكتاب الله حتى يستطيع فهم أقوالهم ويحسن التعامل معها إذ بدون معرفة أساليبهم والتبصر بطرقهم في التفسير يقع الباحث في مزالق كثيرة ، واتبعت الباحثة المنهج الاستقرائي. من أهم النتائج التي توصلت لها الدراسة أن تفسير السلف من أصول التفسير التي لا يجوز إهمالها أو تركها تجنباً للمزالق والأخطاء الكبيرة، إذ أن أهم خصائص تفاسير السلف قلة الخطأ فيها. وأخيراً توصي الباحثة بضرورة معرفة الباحثين لأساليب السلف وطرق تفسيرهم للآيات، طلباً لارتقاء مداركهم وحرصاً على عدم الوقوع في إبهام الخلاف بينهم.

ABSTRACT

This study in the title of: the ancestors ways of explaining ; aims to identify the systematic approach and the method that been followed in extracting the rules and the religious foundation which their explanation was built on . The problem which have been addressed in this study is that this is a major and very important subject which still needs more observation and further understanding.The study aims to know the ways which the ancestors took in extracting rules and assets which there explanations was built on. the study necessitate that each and every viewer should identify the ways and methods of explanation that have been used by the ancestors in interpretation of Quran in ways which make them understand what have been said clearly and act upon it. The clear knowledge and understandings of the ancestors methods of explanations will prevent the viewer from falling in a lot of mistakes and from facing lots of obstacles in Quran interpretation. In this study the searcher followed the inductive method.The most important result of this study that the ancestor interpretation is one of the most accurate methods of interpretations that cannot be neglected, it's also containing the least mistakes . At last the searcher facts that all the researchers should know the ancestors ways of explaining and their methods of interpretation of Quran ; Asking for higher understandings and being careful not to fall in contradiction between them .

الكلمات المفتاحية:

لازم المعنى – المثال – القياس

* كلية التربية بالزلفي- جامعة المجمع- المملكة العربية السعودية.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ,وبعد :

فإن أولي ما تنفق في تعلمه الأعمار وتهون من أجله الأخطار وتستنبط منه الدقائق كتاب الله فهو أجل الكتب قدراً ونفعاً وأجملها حكمة وبيانا وأوضحها دليلا وبرهانا, جعله الله للدين أساساً ومنهاجاً وللصدور شفاء ودواء، من تدبره وعمل بما فيه فهو الموفق السعيد ومن نبذه وأعرض عنه فهو شقي بعيد . ولقد هيأ الله لكتابه رجالاً أوقفوا حياتهم على حفظه وتأويله وأفنوا أعمارهم في معرفة معانيه وتفسيره وتعليمه فعرفوا وجوه قراءاته ومواضع تنزيله وصارت دراية واسعه حتي غداً كتاب الله ميسراً لكل راغب.

وكان على رأس هؤلاء الرجال سلفنا الصالح من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان ومن بعدهم من اتباع التابعين، فالصحابة نزل القرآن بلغتهم التي درجوا عليها، ومتحدثاً عن عاداتهم التي تربوا عليها؛ إمّا بالنهي عنها وإمّا بإقرارها، فالقرآن ينزل بين أظهرهم يعاينون وقائع نزوله وأحداث تنزيله، وبين أيديهم رسول الله ﷺ يُبين لهم ما أشكل عليهم، وهم مع ذلك باذلين أنفسهم لفهمه وعلمه والعمل بما فيه، وكان عصرهم في الجملة خالياً من البدع والهوى، ثم ظهرت البدع بعد عصرهم ظهوراً فاشياً، وصار أرباب البدع يفسرون القرآن ليوافق بدعتهم، وأصحاب التعصب للمذاهب يفسرونه بما يوافق مذهبهم.

ولذا كان حرياً أن نقف على مسالكهم، ونتأمل في تفاسيرهم ونقارن بين أقوالهم لنفيد منها الفوائد، ونستنبط منها الأصول والقواعد.

سبب اختيار الموضوع وأهمية البحث

1- الرغبة في خدمة كتاب الله تعالى طلباً لمرضاته، وطمعاً في ثوابه وعطائه.

2- سعة الموضوع وتشعب أطرافه مما يتيح لي فرصة الاستفادة بالرجوع إلى كثير من المؤلفات والفنون .

3- الاستفادة من تفسير السلف عن طريق استنباط القواعد والأصول التي بنوا عليها تفسيرهم، والإفادة منها في التعامل مع أقوالهم.

أهداف البحث

1-توضيح أهمية تفسير السلف الصالح .

2- بيان مميزات تفسيرات السلف، ومنهجهم في أصول التفسير، وأساليب التفسير عندهم.

3-التعريف بالتفسير اللفظي، والتفسير بالمعنى، والتفسير بالقياس، وذكرت أن الغالب على تفسيرهم التفسير بالمعنى وأنه يتنوع إلى تفسير باللازم وتفسير بجزء المعنى، وبالمثال.

4- أشرت إلى الفرق بين التفسير بالمثال والتفسير بجزء المعنى.

5-التنبيه على بعض النقاط التي يستطاع بها التمييز بين قصد المفسر للتمثيل وقصده للحصر أو التخصيص.

منهجية البحث: اتبعت المنهج الاستقرائي:

المبحث الأول: مفهوم السلف والتفسير وبه مطلبين

المطلب الأول:- مفهوم كلمة السلف لغة واصطلاحاً:-

كلمة السّلف لغة:

مأخوذة من الفعل سَلّفَ الدّال على معنى التقدُّم والسبق[1].

يُقال: "سَلَفَ يسلف سَلَفاً وسُلُوفاً تقدم، والسّالِف المتقدم، والسلف والسليف، والسلفة: الجماعة المتقدمون، والقوم السلاف: المتقدمون، وسلف الرجل آباؤه المتقدمون"[2].

والسّلف: المتقدم قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾[3] أي: معتبراً متقدماً "ولهذا سُمّي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح"[4].

([1]) ابن فارس، أحمد(1979م) معجم مقاييس اللغة، مادة " سلف"، د.ن، ص95.

([2]) ابن منظور، محمد بن مكرم (د.ت) لسان العرب، مادة : "سلف" دار صادر، بيروت، ص2068 بتصرف.

([3]) سورة الزخرف، الآية 56.

([4]) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص2069.

كلمة السلف اصطلاحاً:

التعريف اللغوي لكلمة "السَلف" عامٌ، يشمل كل من تقدم غيره وسبقه، دون تخصيص لهذا السابق بصلاح أو غيره ودون تخصيص له بزمن معين.

فإذا كان المعنى اللغوي لكلمة السّلف يعم جميع الأزمنة المتقدمة، فالتعريف الاصطلاحي مخصص بزمن ما، وقد جرى كثير من أهل العلم على تخصيص مصطلح "السّلف" بالقرون الثلاثة الخيرية المتقدمة، والمقصود بهم الطبقات الثلاث: الصحابة والتابعون وأتباعهم، فهؤلاء هم سلف الأمة الإسلامية.

وأما السبب في تخصيص مصطلح "السّلف" بالقرون الثلاثة، فهو كون هذه القرون مشهود لأهلها بالخيرية، لقُربهم من عصر النبوة، ولسلامة عصورهم من البدع والأهواء والعصبية، ومشاهدة الصحابة للأحداث والوقائع التي واكبت مجيء الإسلام، وتبليغهم ذلك لمن بعدهم من التابعين، وقد دل على ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم فلا أدري في الثالثة، أوفي الرابعة قال: ثم يتخلف من بعدهم خلف، تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته"[5].

ففي الحديث تعديل لأهل القرون الثلاثة، وتفضيل لهم على من بعدهم، فهم سلف لمن بعدهم في كل خير وفي كل فضل، ولأقوالهم من الاعتبار والقبول والمنزلة ما ليس لمن بعدهم. ومما يؤيد تخصيص مصطلح السّلف بالقرون الثلاثة: قول ابن حجر[6] في شرح الحديث السابق "واتفقوا أنّ آخر من كان من أتباع التابعين ممن يُقبل قوله: من عاش إلى حدود العشرين ومائتين، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن وتغيرت الأحوال تغيّراً شديداً، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن، والله المستعان[7].

ثم إن في الحديث إشارة إلى هذه التسمية، وهي قوله ﷺ: "ثم يتخلف من بعدهم خلف".

قال النووي[8] :"... في معظم النسخ يتخلف، وفي بعضها يخلف، وكلاهما صحيح؛ أي: يجيء بعدهم خلفُ"[9].

ومن المعلوم أن الخلف يتبع السّلف، فإذا كان النبي ﷺ سمّى من بعد القرون الثلاثة خلفاً، ففي هذا إشارة إلى تسمية السابقين لهم بالسّلف.

وعلى ضوء ما سبق عرّف العلماء السّلف بأنهم أهل القرون الخيرية الثلاثة: الصحابة، والتابعون وتابعوهم.

قال الإمام السّفّاريني[10]: "المراد بمذهب السّلف: ما كان عليه الصحابة الكرام، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم من أئمة الإسلام العدول، ممن شهد له بالإمامة، وعرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم بالقبول.

([5]) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، (ح2652، ص528)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، (ح2533، 4/ 269)، واللفظ لمسلم.

([6]) أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي العسقلاني المصري الشافعي الشهير بابن حجر. عمدة المحدثين، ومحيي السنة ، مؤرخ، أديب، شاعر، كان ذا معرفة واسعة بالحديث وعلله ورجاله، ورحل إليه الناس من سائر الأقطار، توفي سنة 852هـ. ينظر: شذرات الذهب لابن العماد (407/7)، ذيل تذكرة الحفاظ لأبي الفضل المكي (251/5).

([7]) فتح الباري (6/7) بتصرف يسير.

([8]) أبيو زكريا يحيى بن شرف بن حسن بن حسين النوور الدمشقي الشافعي. العالم العلامة شيخ الشافعية وكبير الفقهاء في زمانه، كان إماماً بارعاً حافظاً متقناً علوماً جمة، وكان على جانب كبير من الزهد والعبادة والورع توفي سنة 676هـ. الذهبي، محمد بن أحمد (1367هـ) تذكرة الحفاظ ، دار إحياء التراث العربي، ص174). ابن كثير إسماعيل بن كثير(1977م) البداية والنهاية، مكتبة المعارف، ص294.

([9]) صحيح مسلم بشرح النووي (86/16).

([10]) أبو العوزن محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني. نسبته إلى سفارين قرية من قرى نابلس بفلسطين، رحل إلى دمشق فأخذ من علمائها، وعاد إلى نابلس فدرس فيها وأفتى، وكان محدثاً فقيهاً، عالماً بالأصول والأدب والتاريخ، توفي سنة 1188هـ. ينظر: الأعلام (14/6)، معجم المؤلفين (262/8).

المطلب الثاني مفهوم التفسير لغة واصطلاحا:

التفسير فى اللغة: التفسير هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى فى سورة الفرقان: ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[11] .. أى بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال في القاموس: "الفسر: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل: كضرب ونصر".

وقال فى لسان العرب: "الفسر: البيان فسَّر الشيء يُفسِّره – بالكسر ويَفسُّره – بالضم فسراً. وفسَّره أبانه. والتفسير مثله ... ثم قال: الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ... "[12].

التفسير الاصطلاحي:

عرَّفه أبو حيان فى البحر المحيط بأنه: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك".[13]

ثم خرَّج التعريف فقال: "فقولنا: "علم"، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: "يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن"، هذا هو علم القراءات، وقولنا: "ومدلولاتها" أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذى يُحتاج إليه فى هذا العلم، وقولنا: "وأحكامها الإفرادية والتركيبة"، هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: "ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب"، يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يُحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: "وتتمات لذلك"، هو معرفة النَسْخ وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن، ونحو ذلك".[14]

([11]) سورة الفرقان، الآية 5.

([12]) لسان العرب ، لابن منظور، مرجع سابق.

([13]) القطان، مناع بن خليل(2000م) مباحث في علوم القرآن ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ص335.

([14]) المرجع السابق نفس الصفحة

المبحث الثاني: أهمية تفسير السلف وأساليبه

المطلب الأول: أهمية تفسير السلف

1. قرب السلف من عصر النبوة.
2. معاينة الصحابة لكثير من الوقائع ومعايشتهم لكثير من الأحداث التي نزل فيها القرآن.
3. معرفتهم بلغة العرب وسلامة ألسنتهم من العُجمَةِ.
4. خلو عصرهم من الاختلافات العقدية والتعصبات المذهبية واتباع الهوى.
5. قلة الخطأ وندرته في تفسيرهم.

ولذا يجدر التنبيه هنا إلى أنّه لا بد للباحث قبل الحكم بتخطئة مفسر من السّلف أن يسلك الخطوات التالية:

1. أن يحاول فهم القول جيداً قبل الحكم بخطئه، والتماس مخرج صحيح له ما أمكن ذلك.
2. أن يتأكد من ثبوت ذلك القول عنه فإذا لم يثبت ذلك القول عنه لم يمكن تخطئته[15].
3. أن يحاول التحقق من كونه لم يرجع عنه.
4. أن لا يفهم قوله بناء على مصطلحات المتأخرين.
5. أن يتأكد من كون قوله وارداً في تفسير الآية موطن الإشكال، وأنه لم يكن يقصد بهذا تفسير آية مشابهة لها في موضع آخر.

ففي قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[16] نُسب إلى ابن جريج[17] أنه قال (لَقُضِيَ الْأَمْرُ) يعني لذبح الموت[18].

وقد تعقب ذلك ابن عطية بقوله: "وهذا قولٌ ضعيف جداً؛ لأنّ قائلهُ سمع هذا المعنى في قوله تعالى:

([15]) ينظر: تفسير الضحاك للحمد بأنه رداء الرحمن المسألة رقم 2 من الباب الثاني.

([16]) سورة الأنعام، الآية 58.

([17]) أبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم المكي. الإمام الحافظ فقيه الحرم، صاحب التصانيف، أدرك صغار الصحابة لكن لم يحفظ عنهم، وكان من أوعية العلم، توفي سنة 150هـ. ينظر: تذكرة الحفاظ (128/1)، تقريب التهذيب (617/1).

([18]) الطبري، محمد بن جرير(د.ت) تفسير الطبري، ص212، ابن عطية، المحرر الوجيز ، ص299.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾[19] وذبح الموت هنا لائق، فنقله إلى هذا الموضع دون شبه، وأسند الطبري[20] هذا القول إلى ابن جريج غير مقيد بهذه السورة، والظن بابن جريج أنه فسّر الذي في يوم الحسرة"[21].

وما أجمل ما قاله الهادي بن إبراهيم بن الوزير[22] في هذا المعنى حيث قال: "فإن من حق الناقض لكلام غيره أن يفهمه أولاً، ويعرف ما قصد به ثانياً، ويتحقق معنى مقالته، ويتبين فحوى عبارته، فأما لو جمع بين عدم الفهم لقصده، والمؤاخذة له بظاهر قوله: كان كمن رمى فأشوى[23]، وخبط خبط عشوا[24]، ثم إن نسب إليه قولاً لم يعرفه، وحمّله ذنباً لم يقترفه؛ كان ذلك زيادة في الإقصا، وخلافاً لما به الله تعالى وصّى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [25] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[26] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[27] إلى أمثالها من الآيات.. فأما مجرد البُهت الصراح؛ فلا يليق بذوي الصلاح"[28].

6. تفسير السّلف له من الحجية والقبول ما ليس لغيره:

"إذا كان السّلف الصالح أقرب عصراً إلي النبوة، وأعمق صلة بكلام الله ورسوله ﷺ وأنقى فطرة، وأزكى فهماً، وأصح لساناً، كان فهمهم للنصوص الشرعية حجةٌ من بعدهم"[29].

ويلزم من ذلك أن يحاكم كل فهم في الشريعة إلى فهمهم، ويوزن كل تفسير بتفسيرهم، فما كان موافقاً لأفهامهم فهو مقبول، وما كان مناقضاً مبطلاً لها فهو مرذول، ولهذا كان العلماء لا يستجيزون القول بخلاف قولهم في تفسير كتاب الله.

يقول الطبري مبيناً علة عدم قبوله لقول من الأقوال: "ولولا أن أقوال أهل التأويل مضت بما ذكرت عنهم من التأويل، وأنّا لا نستجيز خلافهم فيما جاء عنهم؛ لكان وجهاً يحتمله التأويل"[30].

ويقول في معرض رده لقولٍ خارجٍ عن أقوال السلف "وهذا قولٌ لا نعلم له قائلاً من متقدمي العلم قاله وإن كان له وجهٌ، فإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز عندنا أن يتعدى ما أجمعت عليه الحجة، فما صحّ من الأقوال في ذلك إلا أحد الأقوال التي ذكرناها عن أهل العلم"[31].

([19]) سورة مريم، الآية 39.

([20]) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري. شيخ المفسرين وأحد الأئمة يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، كان حافظاً لكتاب الله بصيراً بمعانيه فقيهاً بأحكامه، عالماً بالسنن، بصيراً بأيام الناس وأخبارهم. توفي سنة 310هـ. ينظر: تاريخ لغداد (162/2)، تذكرة الحفاظ (201/2).

([21]) ابن عطية، المحرر الوجيز، مرجع سابق، ص299.

([22]) الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى الحسني، جمال الدين بن الوزير، باحث من علماء الزيدية باليمن، أقام بصنعاء، ورحل إلى مكة، توفي 1356هـ، من كتبه: كفاية القانع في معرفة الصانع. الزركلي، خير الدين بن محمود (2002) الأعلام ، دار العلم للملايين ، ص58 ، معجم المؤلفين (125/13).

([23]) الشوى: الأطراف، وكل ما ليس مقتلاً، ويقال: رميتُ الصيد فأشويته، إذا أصبت شواهُ، وهي أطرافه، ورماه فأشواه؛ أي: أصاب شواه، ولم يصب مقتله، ثم استعمل في كل من أخطأ غرضاً وإن لم يكن له شوى ولا مقتل. ينظر: مادة: "شوى" في معجم مقاييس اللغة (224/3)، لسان العرب (2368/4).

([24]) خبط خبط عشواء: يضرب مثلاً للمتحير الذي يركب رأسه ولا يهتم لعاقبته كالناقة العشواء التي لا تبصر، فهي تخبط بيديها كل ما مرت به، ينظر: لسان العرب، مادة: "عشا" (2960/4).

([25]) سورة الأنعام، الآية 152.

([26]) سورة الأعراف، الآية 29.

([27]) سورة المائدة، الآية8.

([28]) مقدمة تحقيق كتاب العواصم والقواصم لابن الوزير (38/1-40) بتصرف.

([29]) طاهر محمود محمد (1425هـ)أسباب الخطأ في التفسير، دائر ابن الجوزي، ص963 بتصرف.

([30]) الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ص188.

([31]) الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ص33/29.

حكم تفسير الصحابة:

تفسير الصحابة دائرٌ بين كونه منقولاً، أو صادراً عن اجتهاد منهم.

فالأول: وهو ما كان عماده ومرجعه النقلُ، كأن يكون بياناً لسبب نزولٍ أو حكاية واقعة حدثت في عهد النبي ﷺ أو أمراً غيبياً، أو قولاً لا يقال مثله بالرأي، فإنّه له حكم الرفع.

قال الحاكم [32]: "فإنّ الصّحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا وكذا، فإنه حديث مسند"[33].

فإن كان تفسير الصحابي منقولاً عن بني إسرائيل، فحكمه حكم الإسرائيليات: ما وافق الشرع يُقبل، وما خالفه يُرد، وما لم يوافقه ولم يخالفه يتوقف فيه وإن كانت تجوز حكايته.

وأما الثاني: وهو ما كان صادراً عن اجتهاد منهم:

فإن كان بياناً لمعاني الألفاظ بحسب لغة العرب قلا شك في قبوله وتقدمته. قال الزركشي: "ينظر في تفسير الصحابي: فإن فسره من حيث اللغة: فهم أهل اللسان فلا شك في اعتمادهم"[34].

وإن كان اجتهاداً متفقاً عليه فيما بينهم فهو حجة لأنه إجماع.

وإن اختلفوا لم يكن قول بعضهم حجة على بعض، لكن مجموع الأقوال الواردة عنهم في ذلك حجة، إذ الحقُ لا يخرج عن أقوالهم، ولا يخلو من الصواب عصرهم[35].

ومما يحسن التنبيه إليه أن هذه التقسيمات التي ذكرها العلماء أريد بها أن تفسير الصحابة ليس على درجةٍ واحدةٍ من القوة والحجية، بل هو متفاوت في القوة والتقدمة، فما ثبت له حكم الرفع أقوى حجة مما لم يثبت له ذلك، إذ لا يقارن بالمرفوع غيرهُ، وأياً ما كان فلا يشك في كون تفسيرهم أولى بالقبول فلا يعدل عنه إلى غيره ما وجد إلى ذلك سبيل.

حكم تفسير التابعين:

لا يصح إطلاق القول بحجية تفسير التابعين أو عدم حجيته بل لا بد من تفصيل يبين فيه متى تكون أقوالهم حجة ومتى لا تكون كذلك، فيقال: لتفسير التابعين أحوال:

1- أن يكون تفسيرهم مجمعاً عليه فيما بينهم فلا شك في كونه حجة.

2- أن يكون التفسير الصادر عنهم مما لا يُقال مثله بالرأي ولذلك حالان:

أ- أن يكون حكاية لسبب نزول أو لأمر غيبي غير مأخوذ من بني إسرائيل، فهذا من قبيل المرسل، وللعلماء فيه قولان بناء على قولهم في المرسل:

فمن جعل المرسل حجةً مطلقاً أو بشروط معينة جعل كل ما تحققت فيه هذه الشروط من تفسير التابعي حجة.

ومن جعل المرسل ضعيفاً بإطلاق لم يكن هذا النوع من تفسير التابعي حجة عنده[36].

ب- أن يكون مما أخذه التابعي عن بني إسرائيل، فحكمه حكم الإسرائيليات: ما وافق الشرع يقبل، وما

---

[32] أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم. كان من أهل العلم والحفظ والحديث، سمع الكثير وطاف الآفاق، وأشهر تصانيفه: المستدرك على الصحيحين، توفي سنة 405هـ. ينظر: ميزان الاعتدال (216/6)، والبداية والنهاية (379/11).

[33] النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله (1977م) معرفة علوم الحديث ، المحقق: السيد معظم حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 20.

[34] الزركشي، محمد بن بهادر(1400هـ) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ص172. ولا يعني هذا عدم خفاء بعض معاني المفردات اللغوية على أفراد منهم ولكن ليس هذا بغالب عليهم.

[35] للاستزادة ينظر: الموافقات (285/3)، والبرهان (172/2)، وإعلام الموقعين (124/4)، وقواعد التفسير (178/1)، تفسير الصحابة (ص5)، ومقالات في علوم القرآن (ص167)، والمقدمات الأساسية (ص304).

[36] ينظر مذاهب العلماء في قبول المرسل أو رده في: تدريب الراوي (ص161)، قواعد التحديث (ص220).

خالفه يرد، وما لم يوافقه ولم يخالفه يتوقف فيه وإن كانت تجوز حكايته.

3- أن يكون مرجع تفسيرهم لغة العرب، فقولهم أولى بالتقدمة من غيرهم، لعظيم معرفتهم باللغة وتراكيبها، وكونهم في عصر الاحتجاج اللغوي.

4- أن يختلف التابعون فلا يكون قولُ بعضهم حجةً على بعض؛ وإنّما يرجح بين أقوالهم[37].

حكم تفسير أتباع التابعين:

لقد كان جل اهتمام أتباع التابعين منصرفاً إلى رواية تفسير التابعين، ولذلك قلّ الاجتهاد فيهم مقارنة بطبقة الصحابة وطبقة التابعين، واجتهادهم لا يخلو؛ أما أن يكون مُجمعاً عليه أو مُختلفاً فيه:

فإن كان مجمعاً عليه كان حُجة، وإن اختلفوا تخيّر الباحث من أقوالهم ورجّح بينها.

المطلب الثاني: أساليب التفسير عند السلف:

المقصود بأساليب التفسير: هي الطرق والمسالك التي يسلكها المفسر في تفسيره للجُمل والألفاظ القرآنية.

وهذه الأساليب لا تخرج عن واحدة من هذه الأنواع :

الأول: التفسير اللفظي.

الثاني: التفسير على المعنى.

الثالث: التفسير بالقياس.

قال ابن القيم "وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى، وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثيرٌ من الصوفية وغيرهم"[38].

أهمية معرفة أساليب السلف في التفسير:

من الضروري أن يتعرف كل ناظر في تفسير السّلف على الأساليب والطرق التي انتهجها سلفنا الصالح في تفسيرهم لكتاب الله، حتى يستطيع فهم أقوالهم، ويُحسن التعامل معها، إذ بدون معرفة أساليبهم والبصر بطرقهم في التفسير يقع الباحث في مزالق كثيرة، ويتوهم توهمات لا واقع لها ولا أثر، إذ تُعدُّ هذه الأساليب بمثابة الأصول التي يدور عليها تفسيرهم، والقواعد التي تؤسس عليها أقوالهم، فمن رام فهم أقوالهم لزمه معرفة أصولهم، إذ من ترك الأصول حُرم الوصول.

وقد نبّه إلى هذا ابن عطية فقال في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾[39] "الحسنة والسيئة في هذه الآية لفظٌ عام في كل ما يحسن ويسوء، وما ذكر المفسرون من الخصب والجدب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم وغير ذلك من الأقوال فإنما هي أمثلة وليس ذلك باختلاف"[40].

وقال ابن القيم: "... وهكذا غالبُ المفسرين يذكرون لازم المعنى المقصود تارةً، وفرداً من أفراده تارةً، ومثالاً من أمثلته، فيحكيها الجمّاعون للغث والسمين أقوالاً مختلفة، ولا اختلاف بينها"[41].

فقد يردُ عن المفسّر الواحد أقوالٌ في الموضع الواحد، ولا تعارض، وإنما فسّر مرّةً بعموم اللفظ، ومرّةً بلازمه، ومرّةً بمثالٍ له.

فإذا عرف الباحث هذه الأصول استطاع توجيه أقوال السّلف والجمع بينها، وزال عنده التعارض والاضطراب الناشئ من عدم معرفة هذه الأصول أو الغفلة عنها.

وهاك تفصيل الكلام حول هذه الأساليب:

الأسلوب الأول: التفسير اللفظي:

وهو أن يفسر المفسر اللفظة بالمعنى المراد منها في لغة العرب. وهذا هو الأصل في بيان معاني الكلمات، أن ينظر المفسر إلى معنى اللفظة في كلام العرب، إذ تحصيل معاني الألفاظ هو السبيل إلى إدراك المعاني، وقد انتهجت معاجم اللغة وكتب غريب القرآن هذا الأسلوب.

---

[37] للاستزادة حول حكم تفسير التابعين ينظر: تفسير التابعين (49/1)، قواعد التفسير (195/1)، فصول في أصول التفسير (ص40).

[38] التبيان في أحكام القرآن (ص57).

[39] سورة آل عمران، الآية 120.

[40] المحرر الوجيز، مرجع سابق، ص398.

[41] ابن قيم الجوزية (د.ت) بدائع التفسير، دار ابن الجوزي، ص350.

يقول أبو حيان في مقدمة كتابه تحفة الأريب: "... واقتصر في ذلك على شرح الكلمة الواقعة في القرآن من غير تعرض لسائر تصاريفها التي لم تقع فيه، واعتمدت في ذلك على كتب أئمة اللغة ... دون ما يوجد في كتب المفسرين؛ إذ المفسرون يفهمون من اللفظ معنى فيعبرون عنه بلفظ آخر، تارةً يكون مُطابقاً لما في اللغة، وتارةً يكون مُخالفاً"[42].

والناظر في تفاسير السلف يرى وجود هذا النوع بكثرة في تفاسير السلف[43]، وإن كان التفسير على المعنى أكثر شيوعاً منه كما سيأتي بيان ذلك.

والفرق بين التفسير اللفظي والتفسير المعنوي: أن الأول تكون عناية المفسر فيه منصبة على بيان معنى اللفظة في لغة العرب، وأما الثاني فالعناية فيه منصبة على المعنى المفهوم منها في السياق المستعملة فيه.

وقد قرر الشاطبي هذا بقوله: "أن يذكر أحد الأقوال على تفسير اللغة، ويذكر الآخر على التفسير المعنوي، وفرّق بين تقرير الإعراب وتفسير المعنى... لأن النظر اللغوي راجعُ إلى تقرير أصل الوضع، والآخر راجع إلى تقرير المعنى في الاستعمال"[44] وعقد ابن جني[45] باباً في كتابه الخصائص سماه "باب في التفسير على المعنى دون اللفظ"[46].

فالعلماء يفرقون "بين أمرين: بين تفسير اللفظ، والمراد من اللفظ، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [47] تقول: الضُحى ساعة من ساعات النهار، هذا هو التفسير اللفظي، فما المراد من قوله تعالى: {وَٱلضُّحَىٰ}، تقول المراد هنا: قسمٌ أراد الله عز وجل به تعظيم هذا المخلوق الذي خلقه وهو وقتُ الضحى، ولفت الأنظار إليه إذ إنه من الأوقات الشريفة... الخ، وهذا يسمونه: بيان المراد، فتفسير اللفظ شيء، وبيان المراد شيء آخر؛ فتفسير اللفظ: هو بيان معناه من جهة اللغة على العموم، والمُراد من اللفظ: هو تبيين معناه داخل السياق الذي جاء فيه"[48] وهذا الأسلوب من التفسير إنما نحا إليه كثير من المتأخرين عن عصر السّلف لاحتياجهم إلى معرفة مدلولات الألفاظ ومعانيها في لغة العرب، بخلاف السّلف الذين كانت العربية سليقتهم ولم يحتاجوا في فهمها إلى تعليم مُعلم.

الأسلوب الثاني: التفسير على المعنى:

وهو أن يذكر المفسر المعنى المراد من الآية دون التعرض إلى معنى الألفاظ في اللغة.

ولابد لصحة التفسير على المعني أن يكون متضمناً للأصل اللغوي؛ أي: أن يكون بينه وبين التفسير اللفظي ترابط وتآلف، فإذا كان التفسير على المعنى مشتملاً في طيّاته على الأصل اللغوي لم يكن هناك تعارضٌ بينه وبين التفسير اللفظي، "ولذا يحسنُ ذكر المعنى اللغوي مع تفسير السّلف ليزداد الوضوح في التفسير ولتعرف العلاقة بين التفسير على المعنى والتفسير اللغوي"[49].

قال الشوكاني: "واشدد يديك في تفسير كتاب الله على ما تقتضيه اللغة العربية، فهو قرآن عربي كما وصفه الله، فإن جاءك التفسير عن رسول الله ﷺ فلا تلتفت إلى غيره، وكذلك ما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم،

---

[42] تحفة الأريب في القرآن من الغريب لأبي حيان، مخطوط لوحة (4/3) محفوظ بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة، وهذا النص غير موجود بالمطبوع.

[43] ينظر مثلاً: المسائل رقم 25، 57، 62، 63 من الباب الثاني وغيرها.

[44] الشاطبي، ابراهيم بن موسى (د.ت) الموافقات، دار ابن عفان، ص177.

[45] أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي. إمام العربية صاحب التصانيف، لزم أبا علي الفارسي دهراً حتى برع وصنف، وسكن بغداد، ودرس بها، وتخرج به الكبار، توفي سنة 392هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (17/17)، الأعلام (204/4).

[46] الخصائص (279/1)، وينظر: كلام له على هذه القضية في الخصائص أيضاً (152/1).

[47] سورة الضحى، الآية1.

[48] شرح مقدمة في أصول التفسير، لمحمد بن عمر بازمول (ص27) بتصرف.

[49] التفسير اللغوي (ص660)، وينظر فيه قاعدة: لا تعارض بين التفسير اللفظي والتفسير على المعنى (ص652).

فإنهم من جملة العرب... ولكن إذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسّروه به في لغة العرب فعليك أن تضم إلى ما ذكره الصحابي ما تقتضيه لغة العرب وأسرارها، فخذ هذه كلية تنتفع بها"[50].

وقد نبه على التفسير بالمعنى عدد من العلماء وصرحوا بوجوده في تفسير السلف، ففي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [51] قال الطبري: "والخاسرون جمع خاسر والخاسرون: الناقصون أنفسهم حظوظها بمعصيتهم الله من رحمته كما يخسر الرجل في تجارته... وقد قيل: إن معنى ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: أولئك هم الهالكون.

وقد يجوز أن يكون قائل ذلك أراد ما قلنا من هلاك الذي وصف الله صفته بالصفة التي وصفه بها في هذه الآية، بحرمان الله إياه ما حرمه من رحمته، بمعصيته إياه وكفره به. فحمل تأويل الكلام على معناه دون البيان عن تأويل عين الكلمة بعينها فإن أهل التأويل ربما فعلوا ذلك لعللٍ كثيرة تدعوهم إليه"[52].

ولقد كثر التفسير بالمعنى في تفسير السلف، فكان هو الغالب على تفسيرهم، وهذا راجع إلى أمورٍ:

أولها: أنهم لم يكونوا بحاجةٍ إلى بيان مدلولات الألفاظ ومعانيها في لغة العرب، فالعربية لغتهم وطبيعتهم، ومدلولات ألفاظها غير خافية عليهم، ولذلك قلّت حاجتهم إلى التفسير اللفظي.

ثانيهما: أنّ المقصود من الكلام فهم المعنى المراد، والتفسير اللفظي لا يفي بهذا الغرض دوماً، كما أن المعنى هو المقصود أصالةً.

و"إذا تأملت الكلام العربي رأيت كثيراً منه وارداً على المعنى لوضوحه، فلو ورد على قياس اللفظ مع وضوح المعنى لكان عيّاً، وبهذه القاعدة تزول عنك إشكالات كثيرة، ولا تحتاج إلى تكلف التقديرات التي إنما عدل عنها المتكلم لما في ذكرها من التكلف"[53].

ثالثها: أن التفسير بالمعنى لا بد أن يكون متضمناً للأصل اللغوي، فالمفسر به ضمّن كلامه المعنى اللغوي وأضاف إليه ما يتم به مقصود المتكلم، فالتفسير على المعنى جامعٌ للأمرين- المعنى، والأصل اللغوي- أحدهما مُصرح به وهو المعنى، والآخر ضمناً وهو الأصل اللغوي.

أنواع التفسير بالمعنى:

لمّا كان المعنى هو ما تنصرف إليه عناية مفسرو السلف تنوعت أساليبهم في إيضاحه والدلالة عليه، فتارةً يفسرون اللفظ بلازم معناه، وتارةً يفسرونه بجزءِ معناه- لكون هذا الجزء دالاً على بقية المعنى-، وتارةً يزيدون في إيضاحه بذكر مثالٍ أو أكثر من الأمثلة الداخلة تحتهُ.

يقول الزركشي: "فإن بعضهم- يعني المفسرين- يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره- والآخر بمقصوده وثمرته"[54] وعلى ضوء هذا يمكننا القول بأنّ التفسير على المعنى يتنوع إلى:

1. التفسير باللازم.
2. التفسير بجزءِ المعنى.
3. التفسير بالمثال.

وهاك تعريفها وبيان المراد بها:

أولاً: التفسير باللازم: هو تفسير الآية بمعنى ليس مأخوذاً من ظاهر ألفاظها في الأصل لكنه لازم للمعنى المراد تنبيهاً على دخول هذا اللازم في معنى الآية؛ أي: أن المعنى الذي تدل عليه ألفاظ الآية يستلزم هذا المعنى ويشير إليه، فصار عندنا معنيان:

أحدهما: مقصود أصالة، وهو ما دلت عليه ألفاظ الآية.

---

[50] الشوكاني، محمد (د.ت) فتح القدير، دار الكتب العلمية لبنان، ص407.

[51] سورة البقرة، الآية27.

[52] الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ص185.

[53] بدائع التفسير (438/3).

[54] الزركشي، البرهان، مرجع سابق، ص160.

وثانيهما: مقصود تبعاً، وهو ما كان وجوده تابعاً لوجود المعنى الأول.

ومثال ذلك: قوله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[55] قال ابن عطية: "وقال الحسن: أغويتني: لعنتني، وقيل معناه: خيبتني، قال القاضي أبو محمد: وهذا كله تفسير بأشياء لزمت إغواءه"[56].

ومنه ما ورد عن عكرمة[57] في تفسير النسيان في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [58] قال: "إذا غضبت" قال ابن كثير: "وهذا تفسير باللازم"[59].

ثانياً: التفسير بجزء المعنى: هو "أن يذكر المفسر من المعنى الذي يحتمله اللفظ جزءاً منه ليدل به على باقي المعنى"[60] أو لكون السياق يقتضي ذلك.

أي: أن المفسر يذكر بعض ما يتضمنه اللفظ لكون ما ذكره دالاً على بقية المعنى، أو لكون السياق اقتضى تفسير اللفظ ببعض معناه.

مثاله: ما ذكره ابن عطية في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[61] قال: "والميزانُ: العدل فيما قال الطبري ومجاهد وأكثر الناس، وقال ابن عباس والحسن وقتادة: إنه الميزان المعروف. قال القاضي أبو محمد: والميزان المعروف جزء من الميزان الذي يعبر به عن العدل"[62].

فوائد متعلقة بالتفسير بجزء المعنى:

1- عدول المفسر إلى التفسير بجزء المعنى قد يكون دافعه سبب النزول:

قد يعدل المفسر من السلف عن تفسير اللفظ بعمومه إلى تفسيره بجزء معناه؛ لكون هذا الجزء المذكور هو ما نزلت الآية بسببه كقوله تعالى: ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[63] فإنّ القنوت في أصل اللغة الطاعة[64] لكنّ السدي فسره بالسكوت[65]، والعلة في تفسيره ذلك هو سبب نزول هذه الآية فعن زيد بن أرقم قال: "كنّا نتكلم في الصلاة يكلم أحدنا أخاه في حاجته، حتى نزلت هذه الآية ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[66] فأُمرنا بالسكوت"[67].

"وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ قولُ من قال: تأويله: مطيعين، وذلك أن أصل القنوت الطاعة، وقد تكون الطاعة لله في الصلاة بالسكوت عما نهى الله عنه من الكلام فيها، ولذلك وجّه من وجه تأويل القنوت في هذا الموضع إلى السكوت في الصلاة إلاّ عن قراءة قُرآن أو ذكر لما هو أهله، ومما

([55]) سورة الأعراف، الآية 16.

([56]) المحرر الوجيز، مرجع سابق ص380.

([57]) عكرمة بن عبد الله الحبر العالم أبو عبد الله البربري ثم المدني الهاشمي مولى ابن عباس. روى عن مولاه وعائشة وأبي هريرة، وأفتى في حياة ابن عباس، وكان أعلم أصحابه بالتفسير توفي سنة 107هـ. ينظر: ضعفاء العقيلي (1075/3)، تهذيب الكمال (209/5).

([58]) سورة الكهف، الآية 24.

([59]) ابن كثير (د.ت) تفسير ابن كثير المسمى تفسير القرآن العظيم ، ت: سامي السلامة، دار الفكر، ص149. وينظر أمثلة على التفسير باللازم في المسائل رقم: 4، 8، 10، 25، 40، 47 من الباب الثاني، وينظر أيضاً: تفسير الطبري، مرجع سابق (397/17)، تفسير ابن كثير، مرجع سابق (231/2)، بدائع التفسير (77/2، 310، 376، 12/4، 196، 257)، روح المعاني (168/18، 188/27).

([60]) فصول في أصول التفسير (ص83) بتصرف يسير.

([61]) سورة الرحمن، الآية 7.

([62]) المحرر الوجيز، مرجع سابق ص224.

([63]) سورة البقرة، الآية 238.

([64]) ابن فارس، أحمد(1979م) معجم مقاييس اللغة، مادة "قنت" د.ن، ص31.

([65]) الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق ص570.

([66]) سورة البقرة، الآية 238.

([67]) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(1422هـ) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، المحقق : محمد زهير بن ناصر الناصر ، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} ح4534، دار طوق النجاة، ص934. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (د.ت) الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، ح539، دار الجيل، بيروت، ص396.

يدل على أنهم قالوا ذلك كما وصفنا قول النخعي ومجاهد... قالا: كانوا يتكلمون في الصلاة يأمر أحدهم أخاه بالحاجة فنزلت {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} قال: فقطعوا الكلام، والقنوت السكوت، والقنوت الطاعة، فجعل إبراهيم ومجاهد القنوت سكوتاً في طاعة الله على ما قلنا في ذلك من التأويل"[68].

2- **السياق قد يقتضي تفسير اللفظ بجزء معناه:**

قد يُعبر المفسر عن معنى كلمةٍ من الكلمات بنفي جزء من معناها، ويفسرها بما عدا هذا الجزء المنفي وذلك لاقتضاء سياق الكلام لذلك، فدلالة السياق هي التي اضطّرت المفسر للعدول عن المعنى العام إلى التفسير بجزء المعنى.

ففي قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [69].

قال ابن عطية: "قال ابن عباس: الرّبوة المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار. قال القاضي أبو محمد: وهذا إنّما أراد به هذه الربوة المذكورة في كتاب الله؛ لأن قوله تعالى: (أَصَابَهَا وَابِلٌ) إلى آخر الآية يدل على أنها ليس فيها ماءٌ جارٍ، ولم يُرد ابن عباس أن جنس الربا لا يجري فيه ماء؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[70] والمعروف في كلام العرب أن الرّبوة ما ارتفع عما جاوره سواءٌ جرى فيها ماء أو لم يجر"[71].

ثالثاً: التفسير بالمثال: هو تفسيرُ اللفظ العام بصورة أو أكثر من صوره على سبيل التمثيل لا على سبيل التخصيص.

أي: أن المفسر يتصور في ذهنه المعنى المراد من الاسم العام، ثم يحاول تقريبه وتوضيحه بمثالٍ من الأمثلة الداخلة تحته، وليس غرضه في هذه الحالة ذكر معنى الاسم العام، أو حصر معناه فيما مثل به، وإنما غرضه توضيح المعنى وتقريبه؛ إذ "التعريفُ بالمثال أسهلُ من التعريف بالحد المطابق"[72].

وقد نصّ جمع من العلماء على التفسير بالمثال وعلى بعض أغراضه، كالراغب الأصفهاني [73]، وابن عطية[74]، وابن تيمية[75]، والشاطبي[76]، وابن القيم[77].

قال الراغب الأصفهاني: "المفسر إذا فسّر العام بالخاص فقصده أن يُبين تخصيصه بالذكر، ويذكر مثاله، لا أنه يريد أنه هو هو لا غير"[78].

ولما كان كثير من آيات القرآن له صفة العموم، وكان غرض السّلف هو تقريب المراد وتوضيحه، كثُر التمثيل للمعاني في تفسيرهم لكون التمثيل يُجلي المعنى ويوضح صورته أكثر من التفسير بالمعنى المقارب أو المطابق.

يقول ابن تيمية: "وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في أنوع التفسير: تارة لتنوع الأسماء والصفات، وتارة لذكر بعض أنواع المُسمّى وأقسامه كالتمثيلات، هما الغالب على تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف"[79].

ومن أمثلة التفسير بالمثال ما ورد عن السّلف في معنى الطاغوت:

قال ابن عطية: "واختلف المفسرون في معنى الطاغوت: فقال عمرُ بن الخطاب ومجاهد والشعبي، والضحاك، وقتادة، والسدي؛ الطاغوت: الشيطان، وقال ابن سيرين[80] وأبو العالية[81] ؛ الطاغوت: الساحر، وقال

---

[68] تفسير الطبري، مرجع سابق ص2/ 571، 572 بتصرف.

[69] سورة البقرة، الآية 265.

[70] سورة المؤمنون، الآية50.

[71] المحرر الوجيز، مرجع سابق، ص359.

[72] خالد عبد الرحمن(1406هـ) أصول التفسير وقواعده، ص34، 35 بتصرف.

[73] مقدمة جامع التفاسير (ص61، 155).

[74] المحرر الوجيز (85/1)، (312، 398) وغيرها.

[75] مقدمة في أصول التفسير (ص 33، 39).

[76] الشاطبي، ابراهيم بن موسى(د.ت) الاعتصام، ص76، 77.

[77] ابن الجوزي، بدائع التفسير، مرجع سابق، ص350.

[78] مقدمة جامع التفاسير (ص61).

[79] مقدمة في أصول التفسير (ص39، 40).

[80] محمد بن سيرين الأنصاري أبو بكر مولى أنس بن مالك. الإمام شيخ الإسلام، كان فقيهاً إماماً، غزير العلم، ثقة ثبتاً، علامة في التعبير، رأساً في الورع، مأموناً عالياً رفيعاً، وكان به صمم، توفي

سعيد بن جبير وجابر بن عبد الله وابن جُريج: الطاغوت: الكاهن. قال أبو محمد: وبيّن أن هذه الأمثلة في الطاغوت لأن كل واحد منها له طُغيان، والشيطان أصل ذلك كله".

التمييز بين قصد المفسر للتمثيل وقصده للحصر أو التخصيص:

إن كثرة التفسير بالمثال في تفسير السلف يستوجب على الناظر في تفسيرهم أن يميز بين كون المفسر يقصد التمثيل للمعنى المراد، وبين كونه يقصد حصر معنى الآية فيما يفسر به، حتى لا يحمل التمثيل على التخصيص أو العكس، ويستطيع الباحث تمييز ذلك بما يلي:

1. إذا صرّح المفسر بحصر المعنى فيما فسّر به، أو كانت عبارته صريحة في التخصيص، فلا يسوغ عد قوله تمثيلاً إلا إذا كان ذلك في حكاية سبب نزول، فإنه يُحمل على التمثيل كما سيأتي بيان ذلك.
2. إذا كان سياق الآية يحتم تعيين معنى واحد، أو ذات واحدة خرج عن كونه مثالاً. مثل الخلاف في المنادى في قوله تعالى: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحتِها ألاَّ تَحزنِي} [مريم: 24] قيل المنادِي: جبريل، وقيل عيسى[82]، فلا يصح القول بأنهما خرجا مخرج التمثيل؛ وذلك لكون الآية ظاهرة في كون المنادي واحداً.
3. أن يتنافى اجتماعُ قول مفسّر ما مع غيره من الأقوال الأخرى؛ إذ المثال لا ينافي آخر، كما لا يُنافي تفسير اللفظ بعمومه أو بجزئه أو بلازِمه.
4. أن تتعدّد الأقوال غير المتعارضة عن المفسّر الواحد في تفسيره للآية الواحدة، فتكون جارية مجرى التمثيل، ويكون في هذا دليلٌ على عموم اللفظة المفسّرة واحتوائها المعاني المذكورة.

مثال ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الباقيات الصالحات في قوله عزّ وجلّ: ﴿والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِكَ ثَواباً وَخَيرٌ أَمَلاً﴾[83] فقد وردت عنه العبارات الآتية:

- هي الصلوات الخمس.
- هي قول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.
- هي الكلام الطيب[84].

قال ابن عطية: "وقول ابن عباس بكل الأقوال دليلٌ على قوله بالعموم"[85].

الفرق بين التفسير بالمثال والتفسير بجزء المعنى:

بعد تأمل في كثيرٍ من أمثلة التفسير بالمثال والتفسير بجزء المعنى بدا- لي- ما يلي:

1- أنّ التفسير بجزء المعنى ينظر المفسر فيه إلى المعنى الكلّي فيجتزئ منه جزءاً يدلُ على المعنى، أما المثال فهو صورةٌ للمعنى العام وتقريب له، فليس هو المعنى العام وليس هو جزؤه، وإنما هو صورة للمعنى؛ أي: أنّ المعنى تحقّق في مثالٍ ما ففسّر المفسر بالمثال ليرسم للقارئ أو السامع صورةَ المعنى في ذهنه، كما فسّر بعضُهم النّعيم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسأَلُنّ يَومَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[86] بأنّه الماءُ البارِدُ، فهل معنى النعيم هو الماء البارد؟ بالطبع لا، لكنّ الماءَ البارِدَ ورد من صُورِ النعيم. وعلى ضوء ما سبق يتضحُ لنا أنّه في جُزء المعنى يكون المعنى المراد مُصرّحاً ببعضه لدلالته على بعضه الآخر، أما في المثال فالمعنى المراد غير مصرح به ولا ببعضه، بل هو موجودٌ ضِمناً.

سنة 110هـ.، ينظر: تذكرة الحفاظ (63/1)، تهذيب الكمال (340/6).

([81]) رفيع بن مهران أبو العالية البصري الرياحي. المقرئ المفسر الحافظ، كان مولى لامرأة من بني رياح، أسلم في خلافة الصديق، وقرأ القرآن على أبي بن كعب، وتصدر لإفادة العلم. توفي سنة 90هـ. ينظر: الجرح والتعديل (510/3)، سير أعلام النبلاء (207/4)

([82]) الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ص67، 68.

([83]) سورة الكهف، الآية 46.

([84]) الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ص(353/15-256).

([85]) المحرر الوجيز، مرجع سابق، ص520.

([86]) سورة التكاثر،الآية 8.

2- قد يقتضي السياقُ إثبات جزء من المعنى ويكون الجزءُ الآخر غير مُراد، فيتنافى اجتماعُ الجُزأين، كما تقدّم مثلاً في تفسير ابن عباس للرّبوةِ بأنها المكانُ الذي لا تجري فيه الأنهار، فإنّهُ تفسيرٌ للربوة ببعض معناها؛ إذ الرّبوة ما ارتفع عمّا جاورها سواءٌ جرى فيها ماءٌ أو لم يجرِ فيها ماءٌ، فإنّ السياق يأبى اجتماع المعنيين، أما لو فسّر المعنى الواحد بأمثلةٍ متعددة فإنّ الأمثلة لا يتنافى اجتماعها ولو كثرت.

لكن قد يرد استخدام جزءِ المعنى بمعنى الآخر ومن ذلك مثلاً: قول ابن عطية في تفسير لفظة {حَنِيفاً} قال: "يجئ الحنيف في الدين المستقيم على جميع طاعات الله، وقد خصّص بعضُ المفسرين، فقال قومٌ: الحنيفُ الحاجُّ، وقال آخرون: المختتن، وهذه أجزاء الحنف"[87] ففي هذا المثال لا يصح أن يُقال: إنّ الحاجّ أو المختتن جزءٌ من معنى الحنيف بحيث لو جمعنا هذه الأجزاء أعطتنا المعنى الكلّي لكلمة حنيف، وإنما هي أمثلة له، وهذا هو مراد ابن عطية لكنّه عبّر عن المثال بالجزء.

الأسلوب الثالث: التفسير بالقياس:

هو إدخال المفسر في دلالة الآية معنى غير معناها الظاهر، لوجود شبهٍ بين المعنيين.

أي: أن المفسر يقيس على المعنى الظاهر من الآية معنى آخر لم تنص الآية عليه وليس من لوازمها، ولكنه شارك المعنى الظاهر أو شابهه في وجهٍ أو علة، فأدخله المفسر في معنى الآية قياساً على المعنى المراد.

وهذا الأسلوب أقلُّ الأساليب وجوداً في تفسير السّلف لكون اهتمامهم منصباً على المعنى الأصلي للآية.

ويشترط لصحة هذا الأسلوب من التفسير شروطٌ أربعة:

1- أن لا يناقض معنى الآية.
2- أن يكون معنى صحيحاً في نفسه.
3- أن يكون في اللفظ إشعارٌ به.
4- أن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباطٌ وتلازم[88].

ومن أمثلته: ما ذكره ابن عطية عن مالك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [89]

قال: "وروي عن مالك أنّ هذه الآية في تشميت العاطس، وفيه ضعفٌ؛ لأنّه ليس في الكلام على ذلك دلالة، وأمّا أنّ الرّد على المُشمت مما يدخل بالقياس في معنى ردّ التحية فهذا هو منحى مالكٍ إن صحّ ذلك عنه"[90].

الخاتمة:

أحمد الله سبحانه وتعالى على أن وفقني لإتمام هذا العمل وأسأله سبحانه أن يزيدني من فضله ومنّه؛ إنه جواد كريم.

وبعد،

فقد عشت مدة من الزمن مع هذا الموضوع الشائق الممتع، أتأمل أقوال مفسري السّلف، وأغوص على دقائقها، وأجلي غوامضها، وقد خلصت إلى جملة من **النتائج** أذكر أبرزها فيما يلي:

1-تفسير السلف أصل أصيل وركن ركين من أصول التفسير .

2-قلة الخطأ في تفاسير السلف خاصية من أهم الخصائص، وميزة من أهم الميزات التي تميز بها تفسيرهم.

3- أهم الخطوات التي لابد أن يسلكها الباحث قبل حكمه بالخطأ على قول من أقوال السلف، وأن غالب ما نسب إلى السلف من أخطاء؛ إما أن يكون غير ثابت صحته عنهم، أو مفهوماً على وجه لم يقصدوه، أو محمولاً على سياق أو مقام غير المقام الذي فسروا فيه.

4- أن عدم معرفة طرقهم في التعبير عن المعاني من أكبر العوائق التي تحول دون فهم كلامهم، كما أن الجهل بها يوقع في إيهام الخلاف وكثرته بينهم، وكذا يوقع في تخطئتهم بدون وجه حق.

5-التفسير باللازم فيه توسيع لمدلول الآية، وتنبيه على ما حذف من الكلام.

---

[87] المحرر الوجيز، مرجع سابق، ص215.

[88] تنظر هذه الشروط في بدائع التفسير (299/5).

[89] سورة النساء،الآية 86.

[90] المحرر الوجيز (87/2).

6-عدول المفسر إلى التفسير بجزء المعنى قد يكون دافعه سبب النزول.

7- تفسير الكلمة أو الجملة في سياق ما لا يصح جعله تفسيراً عاماً لها في كل سياقاتها الأخرى، إلا إذا كانت موافقة للكلمة المفسرة في المعنى المراد.

8-التفسير بالمثال من أكثر الأساليب استعمالاً في تفسيرات السلف، ولا يستفاد منه التخصيص أو الحصر.

9-إذا صرح المفسر بحصر المعنى فيما فسر به خرج عن كونه مثالاً.

10-التفسير بالمثال يوسع دائرة المعنى ويزيده وضوحاً وظهوراً.

11-لا يشترط في حمل كلام المفسر على التمثيل قصده التمثيل.

12-خفاء مقصد المفسر في تفسيره بالمثال ليس مسوغاً لتخطئته.

13-قد يكون التفسير بالمثال لأجل إشارة السياق إلى المثال الممثل به.

14-أسباب النزول من باب التفسير بالمثال.

التوصيات:

ضرورة معرفة الباحثين لأساليب السلف وطرقهم في تفسير الآيات، إذ بهذه المعرفة ترتقي مدارك الباحث، وتربي عنده ملكة يحسن بها فهم كتاب الله.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**

1. ابن فارس، أحمد(1979م) معجم مقاييس اللغة.
2. ابن منظور، محمد بن مكرم (د.ت) لسان العرب، مادة : "سلف" دار صادر، بيروت.
3. ابن كثير إسماعيل بن كثير(1977م) البداية والنهاية، مكتبة المعارف.
4. الذهبي، محمد بن أحمد (1367هـ) تذكرة الحفاظ ، دار إحياء التراث العربي.
5. الزركلي، خير الدين بن محمود (2002) الأعلام ، دار العلم للملايين.
6. القطان، مناع بن خليل(2000م) مباحث في علوم القرآن ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع .
7. طاهر محمود محمد (1425هـ)أسباب الخطأ في التفسير، داتر ابن الجوزي.
8. النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله (1977م) معرفة علوم الحديث ، المحقق: السيد معظم حسين، دار الكتب العلمية، بيروت.
9. الزركشي، محمد بن بهادر(1400هـ) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر.
10. ابن قيم الجوزية (د.ت) بدائع التفسير، دار ابن الجوزي.
11. الشاطبي، ابراهيم بن موسى (د.ت) الموافقات، دار ابن عفان.
12. ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، د.ن
13. شرح مقدمة في أصول التفسير، محمد بن عمر بازمول
14. الشوكاني، محمد (د.ت) فتح القدير، دار الكتب العلمية لبنان.
15. ابن كثير(د.ت) تفسير ابن كثير المسمى تفسير القرآن العظيم ، ت: سامي السلامة، دار الفكر.
16. ابن فارس، أحمد(1979م) معجم مقاييس اللغة، د.ن.
17. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(1422هـ) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، المحقق : محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.
18. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (د.ت) الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، دار الجيل، بيروت.
19. خالد عبد الرحمن(1406هـ) أصول التفسير وقواعده.